

عن المؤلف والكتاب

محمد صديق الجليلي .. والتراث الموسيقي في الموصل



التراث الموسيقي في الموصل

تمهيد

يجد المتتبع الباحث عن الألحان القديمة في الموصل تراثاً موسيقياً ضخماً قد تكدس خلال العصور المختلفة، فقد اشتهرت الموصل منذ القديم بتقدم الفن الموسيقي فيها، وقد نشأ فيها العدد الكبير من الموسيقيين من ذوي الشهرة الواسعة في هذا الفن في مختلف العصور، ويرجع ذلك الى أسباب عديدة أهمها:

١- الموقع الجغرافي: حيث تقع الموصل على ملتقى الطرق الرئيسية للتجارة في الشرق الاذني، كما كانت تقع على طريق البريد الرئيس بين بغداد والقسطنطينية (استانبول) في العهد العثماني، فكانت الألحان المتنوعة، والحالة هذه تأتيها من مختلف الجهات، فالألحان الشامية تأتيها عن طريق حلب، والألحان العراقية عن طريق بغداد الخ.. فضلاً عن الألحان الموصلية المحلية، وذلك عدا الألحان التي خلفتها وراءها تلك الموجات من الشعوب المختلفة التي اجتاحت هذه البلاد منذ العصور العباسية المتأخرة الى حين الاحتلال العثماني.

٢- الاحتفال بعيد المولد النبوي: وذلك بتلاوة النقبة النبوية الشريفة مع ترتيل الموشحات والمدائح النبوية المتنوعة، لأول مرة كان في الموصل وأربيل في العهد الاتابكي، ويصف لنا ابن خلكان فخامة تلك الاحتفالات وصفاً شاملاً وخاصة في أربيل في زمن أميرها مظفر الدين كوكبوري ثم توسع أمر إقامة مثل هذه الحفلات بحيث أصبحت تقام في سائر المناسبات من دينية واجتماعية، مثل ليلة المعراج وليلة القدر وغيرها من المناسبات الدينية أو في الأفرح مثل حفلات الزفاف والختان والايام من الحج والايال من المرض أو سكنى الدار الجديدة.. وغيرها من المناسبات الاجتماعية المختلفة، هذا واستمرار إقامة مثل هذه الحفلات منذ ذلك العهد الى الوقت الحاضر كان من اهم الأسباب التي حفظت لنا هذا التراث الكبير من الألحان القديمة المتنوعة الكبار بما كانت عليه الموصل في العصر الاتابكي من الازدهار العظيم: وجميع النواحي.

٣- الطرق الصوفية العديدة: وخاصة الطريقة القادرية، حيث كانت تعقد حلقات الذكر في زواياها باستمرار، فصي الجيل الماضي مثلاً، قلما نجد بين سكان محلة الجامع الكبير في الموصل من ليس له المام بالألحان ولو قليلاً، لوقوع التكية القادرية فيها داخل الجامع الكبير نفسه والتي أسسها المرحوم السيد محمد النوري القادري بن السيد جرجيس الموصل المتي في سنة ١٣٠٥ هـ وقد نشأ معظم قراء الموصل ومنشديها في الجيل الماضي في هذه التكية.

٤- النهضة العربية: في العلوم والآداب والفنون التي ظهرت بوادرها في الموصل في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، وازدهار تلك النهضة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بتشجيع الحكومة المحلية لها بمختلف الوسائل من انشاء المدارس العديدة وتكريم العلماء والشعراء والأدباء وأهل الفن، وإنشاء الجوامع والمساجد العديدة وما تبع ذلك من كثرة الوظائف الدينية من مرتلي القرآن الكريم في المحافل ومؤذنين وممجدين الخ وكذا كثرة الكنائس في الموصل وما يتبعها من التراتيل الكنسية القديمة المتنوعة، أضف الى ذلك الازدهار النسبي للموصل في القرنين المذكورين في مختلف باقي النواحي.

٥- ذبوع الغناء بين أهل الحرف: والاصناف المختلفة من بنائين وكوازين وحكاة وقزازين ويوزيكية الخ.. حتى ان بعض المقامات الموسيقية في الموصل قد أخذت اسمها كما يظهر عن بعض أفراد من أصحاب هذه الحرف مثل مقام

القزازي واليوزيكي، كما ان مقام الناري قد اشتهر بالموصل بانه مقام الحاكة وذلك لكثرة غنائه من قبلهم في السابق عندما كانت الموصل مصنعا كبيرا للنسيج، ويظهر ان انغام هذا المقام تنفق وحركة الدقة والدواسات لآلة الحياكة القديمة أثناء العمل.

٦- الغناء في المقاهي: بمصاحبة الآلات الموسيقية أو من دونها.

٧- الاصطياف في حمام العليل: لقد اعتاد أهل الموصل منذ القديم الذهاب الى حمام العليل في فصل الصيف لأجل الاصطياف والاستحمام بمياهها المعدنية الحارة، وكانوا ينشئون لسكناهم هناك ملاجئ مؤقتة تسمى بالعرازيل والتي تشاد بالأعمدة الخشبية وتغطي باحطاب السوس الذي يجلب من الغابات القريبة، فترى ذلك المكان بعد ان كان مقفراً موحشاً وقد اصبح مزدحماً بالناس، فيهرع اليها عندئذ الكثير من القراء والمغنين والمنشدين والعازفين، وتقام الولائم وحفلات الانس والطرب، ويكثر الصخب كأن الأيام جميعها أيام عيد ومهرجان.. وقد وصف احوال حمام العليل هذه بإسهاب الشاعر الموصل الغزيرف الملا جرجيس ابن درويش المتوفى عام ١١٤٠ هـ بقصيدة طويلة، وكذا وصف احوالها الأديب والطبيب الموصل الشهير محمد امين بك ابن ابراهيم آل ياسين الفتى بقصيدة تنوف على الأربعين بيتاً، هذا ودامت احوال الاصطياف في حمام العليل على هذا المنوال الى ما بعد الاحتلال البريطاني بسنين قليلة، حيث كانت قد اختت في التقصص منذ اعلان الحرب العالمية الأولى.

٨- التنزه في موسم الربيع: ومن عادات أهل الموصل القديمة أيضاً نصب الخيام العديدة اطراف المدينة في موسم الربيع، وخاصة فوق المرتفعات المشرفة على دجلة وتلوق الغزلاني المشرفة على حاوي الموصل وغيرها من الاماكن المناسبة، وذلك لاجل التنزه وتبديل الهواء، وتقام في تلك الخيام عندئذ الولائم وحفلات الانس والطرب والانشاد بكثرة طوال الموسم وكان لابد من غناء مقام المخائف الموصل، حيث انه المقام المفضل في موسم الربيع.

٢

الموشحات الدينية (التنزيلات) الموشحات الدينية المختلفة تسمى في الموصل التنزيلات مفردها (تنزيلة) وهو من الاصطلاحات الصوفية، وللشيخ محيي الدين بن عربي كتاب عنوانه (التنزيلات الموصلية) في التصوف وكان قد الفه في الموصل عند مجيئه اليها ونزوله في جامع محمود نور الدين الاتابكي (الجامع الكبير).

والتنزيلات هي منظومات على أسلوب الموشحات في المديح النبوي الشريف أو التوسلات والابتهالات الصوفية المتنوعة منها ما هو من تلحين ناظم ابيات الموشح نفسه ومنها ما نظم على الحان الاغاني التي كانت شائعة في عصر الناظم، وفي الموصل الشيء الكثير من هذه الموشحات فإنها تعد بالئات ومعظمها قديم فمنها ما هو من الحان القرن الماضي ومنها ما يعود للقرنين الثاني عشر والحادي عشر الهجريين ومنها ما هو اقدم من ذلك بكثير فمثلاً موشح (عرج يا حادي نحو الحمى) من مقام الصبا المنسوب لابن الطبيب حبيب حيث يقول ناظمه في آخره (رب واغفر للجراح بن الطبيب واختم بالحسنى لنا جميع) فاذا كان بن الطبيب هذا هو بن الطبيب دمشقي أي مؤيد الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد، يكون عمر هذا الموشح ما يقرب من سبعائة وخمسين عاماً حيث كانت وفاة ابن الطبيب الموما اليه عام ٦٢٧ هجرية الموافق ١٢٣٠ ميلادية وكان بن الطبيب هذا أديباً وطبيباً وفلكياً وله مؤلفات عديدة منها مختصر كتاب الاغاني.

كانت العادة الجارية في العصور الأخيرة في الموصل عند الأدباء والشعراء وشيوخ الصوفية هي كلما ظهرت اغنية جديدة ذات لحن شجي بادر أكثر من واحد منهم

اللى نظم موشح على لحن تلك الاغنية ومن حسن الحظ كان البعض منهم يذكرون منظوماتهم هذه الامر الذي جعلنا ان نتأكد من تاريخ تلك الألحان والعصور التي كانت شائعة فيها فمنهم الشيخ عثمان الخطيب بن يوسف بن عز الدين الخلوتي القادري الموصل المتوفى عام ١١٤٥ هـ (١٧٣٢م) وله ما يزيد على الخمسين موشحاً من مختلف المقامات واشهرها الموشح المسمى بسلسلة الرست ويتألف من أربع قطع ومطلعه (يا باهي الجمال جودلي بالوصول) وكذا الموشح المسمى بسلسلة الصبا ويتألف ايضاً من أربع

قطع ومطلعه (صلوا على طه حبيب الرحمن) وغيرها، ومنهم الأديب والموسيقار الشيخ قاسم الرامي الموصل بن الشيخ قاسم المذكور وكان صوفياً قادرياً وكانت وفاة الشيخ قاسم الرامي عام ١١٨٦ هـ الموافق (١٧٧٢م) ومنهم الشيخ علي الهوي الموصل الشهير بالجعفري المتوفى عام ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧م) ومنهم الأديب الشاعر علي بن علي ابو الفضائل العمري والأديب نعمان بن عثمان الدفتري العمري الموصل ومنهم السيد خليل بن السيد علي البصري الموصل المتوفى عام ١١٧٦ هـ (١٨٦٢م) ومنهم الأديب والمقريئ الشيخ محمد امين بن الشيخ سعد الدين شيخ القراء الموصل وغيرهم كثيرون جداً، اما من الجيل الماضي فأشهر من نظم الموشحات الدينية في الموصل هو المرحوم العلامة سليمان بك آل مراد بك الجليلي المتوفى عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م) وله ما يقرب من خمسة عشر موشحاً جميعها من الألحان النفيسة ومنهم الأديب والموسيقار الشهير الملا عثمان الموصل المتوفى ١٣٤١ هـ (١٩٢٣م) وله ما يزيد على الخمسين موشحاً جميعها من الألحان النفيسة

واشهرها موشح (يا آل طه فيكم قد هام المصنئ) من مقام الرست والحان هذا الموشح على جانب عظيم من الضخامة هذا وارجوح الملا عثمان الموصل كان من احد اساتذة المرحوم الشيخ سيد درويش وكذا من اساتذة الشيخ على محمود المقريئ والمثنى المصري الشهير.

٣

الأغاني الاغاني في الموصل كثيرة جداً، وهي من مختلف المقامات والألحان والانواع والايقاعات والمواضيع والصادر، ومعظمها من الحان العصر الماضي والحاضر، اما الاغاني الموصلية الشعبية القديمة، فلم يبق منها الا العدد القليل، وهو ما كان يرددته قبل سنين عمال البناء أو الدقاقيات (العوامل) أو الاجواق الموسيقية في حفلات الافراح المختلفة، ولا يزال يوجد بعض الموشح من يحسن غناء بعض تلك الاغاني في الوقت الحاضر، اما الاغاني الهزلية الانتقادية والتي تسمى الان بالمللوجات الفكاهية، فأول من أوجدها في الموصل الأديب اسكندر الحلبي الشهير بـاسكندر الأعمى الموصل المتوفى في حدود عام ١٩٠٠ م وكان استاذاً للموسيقى النحاسية في مدرسة الدومنيكان بالموصل، وهي باللهجة العامية الموصلية.

واما الاغاني البغدادية (البيستات) فجميعها تقنى بالموصل من قديمة وحديثة، اما الاغاني النسامية من موشحات وطاقطيق، والاغاني المصرية من موشحات وادوار، فمعظمها يعود للقرن الماضي والحاضر، وخاصة الحان الشيخ امين الجندي الحمصي المتوفى عام ١٨٤١م أو الألحان التي كانت شائعة في عصره في الديار الشامية ويضع الحان الشيخ احمد ابي خليل القهباني الدمشقي المتوفى عام ١٩٠٢ م والحان محمد عثمان وعبيده الحموتى والشيخ سلامه حجازي وداؤد حسني واخيراً الشيخ درويش وغيرهم، وقد وصل الكثير من هذه الألحان عن طريق الاجواق الموسيقية التي كانت تتردد بين حلب والموصل، واسطوانات الحاكي (الغراموفون) التي كان يجلبها التجار الموصليون من استانبول وحلب وذلك بعد اختراع هذه الآلة وانتشارها في البلاد العربية، واول الاسطوانات التي وصلت الموصل في أوائل هذا القرن كانت من الاغاني التركية التي سجلت في استانبول، اما العربية منها فكانت بصوت المرحوم عبده الحموتى كان قد سجل صوته لدى شركة اوديون عند زيارته الأخيرة لاستانبول عام ١٨٩٦ م، ولايزال يوجد في الموصل بعض بقايا من تلك الاسطوانات القديمة.

هذا وفي الموصل ايضاً الكثير من الاغاني التركية على اختلاف انواعها من اغان وأناشيد عسكرية ومدسية وغيرها، وقد نظم لألحان الكثير منها أناشيد ومنظومات عربية، ولم ينتشر لحن من الحان هذه الاغاني في البلاد العربية في الجيل الماضي والحاضر، كما انتشر لحن الاغنية التركية القديمة المسماة بنشيد استانبول (استانبول شريقيس) وهي من مقام الحجاز، ومطلعه (اطه لرساخذنه بكليورم) فقد استبدلت كلماتها بقصيدة "يا ليل الصب متى غدت" لابي الحسن الحمصدي في سوريا، ويظهر ان وزن هذه القصيدة قد اتفق صدفة مع لحن هذه الاغنية وايقاعها، هذا كما نظم على لحنها في سوريا اغنية "قدك المياس يا عمري" وفي بغداد النشيد المدرسي "وطني والحق سينجده".

اما المعزوفات الموسيقية الصرفة، أي الموسيقى الآلية من مقدمات وسماعيات وشارف وغيرها، فجميعها من التأليف التركية كما هو الحال في الكثير من البلدان العربية الأخرى، واعتقد بانه كان يوجد في الموصل قديماً شيء من هذه الألحان، إلا انها فقدت بانقراض التخت الموسيقي القديم في أوائل هذا القرن، فقد تويع آخر عازف بارع على القانون من الطراز القديم في الموصل وهو شكر الموصل في كانون الثاني عام ١٩٠٨ م وتبعه بعد سنين قليلة آخر العازفين على السنطور، وذلك قياساً على مثل هذه التأليف الموسيقية التي كانت تعزف في السنطور ان سمع شيئاً منها في الحفلة الخاصة التي اقامها الموسيقيون البغداديون للأستاذ سامي الشوا عند زيارته الأولى لبغداد عام ١٩٣١ وذلك في الدار التي كانت تشغلها شركة (الجرامافون كومياني) الواقعة في محلة السنك، فقد دعاني الأستاذ الشوا لمرافقته لحضور تلك الحفلة حيث كنت مقبياً معه في الفندق نفسه وكانت الحفلة حسبما أتذكر عصر يوم ١٩ / ١٠ / ١٩٣١ فعزف أحد الموسيقيين على السنطور قطعة موسيقية نالت استحسان الأستاذ الشوا كثيراً ثم اعقبه عازف القانون ثم الكمنجة (الجوزة) ثم عزف المرحوم الأستاذ نوبار على قانونه بعض القطع، وفي الختام عزف الأستاذ سامي بعض الحانة الشجية على الكمان حيث انتهت الحفلة، قياساً على ذلك اعتقد بانه كان يوجد في الموصل ايضاً شيء من هذه المعزوفات الموسيقية.

٤

المقامات الموسيقية المقامات الموسيقية المستعملة في الموصل هي المقامات العراقية مع مقامات الموسيقى العربية الأخرى وكثير من مقامات موسيقى التركية، ونذكر أذناه جدولاً بأهم تلك المقامات، وذلك بعد تصنيفها حسب انواعها الى فصائل ومجموعات على قدر الامكان مع ذكر بعض الامثلة من الألحان الشائعة من موشحات وغيرها عند الاقتضاء:

١- الابراهيمى: هو شهر مقامات البياتي العراقية، ويختلف عن البياتي المصري في أسلوب الغناء فقط.

٢- البهزراوي:

٣- الجبوري:

٤- المقابل:

٥- الحمودي: ومنه موشح "بلابل الشوق غدت ترثيني".

٦- المخالف: يستقر المخالف الموصل على الدوكاه، وله ايقاع خاص ومقدمة موسيقية خاصة، ومنه اغنية "أويلاه وأويل".

٧- الحسيني:

٨- البياتي القديم: ويتألف من العجم عشيران والحسيني.

٩- الديوان: ويسمى في بغداد (أورفه).

١٠- لاوك:

١١- الدشتي:

١٢- القزازي: ومنه موشح "ساقى المدامة أدري لكأس".

١٣- الناري: ومنه موشح "برق الحمى تنسم".

فصيلة البياتي المصري:

١٤ البياتي دوكاه: ومنه دور "عهد الاخوه نحفظه".

١٥- البياتي نوا: ومنه دور "سلمت روحك".

١٦- البياتي الشوري (قارجفار): ومنه دور "صنعت مستقبل حياتي".

١٧- البياتي حسيني: ومنه دور "خط الحياة".

١٨- البياتي محير: وهو نفس مقام المحير التركي.

فصيلة المنصوري:

١٩- المنصوري: ويتألف من البياتي الحزين المشرب قليلاً بالصبا.

٢٠- الشور: وهو نوع من المقامات في الموسيقى الأسلوب الآيراني.

٢١- الصبا: وهو عين مقام الصبا في الموسيقى العربية والتركية.

٢٢- الحديدي: وهو صبا مشرب بالبياتي ومنه الاغنية الشامية "تحت هودجها" واغنية "يا حب ياغالي بالحب".

مقامات نغم الحجاز:

فصيلة نغم الحجاز:

٢٣- مقام الحجاز: وهو عين مقام الحجاز في باقي البلاد العربية وتركيا.

٢٤- الحجاز ديوان:

٢٥- الحاجز همايون: وهو حجاز ديوان

الموسيقى التركية.

٢٦- الحجاز قطر: ويتألف من البياتي والحجاز ديوان.

٢٧- الحجاز دنادي: وهو نوع من الحجاز قطر.

فصيلة المثنوي:

٢٨- المثنوي: ومنه موشح "يا خلي روحي تنداك".

٢٩- المثنوي اصفهان: ويتألف من المثنوي والعريبيون، ومنه موشح "أخرجت من الدمع الى بابل عنيا".

٣- العريبيون: ويسمى في بغداد (مدمي) ومنه موشح "أنت النبي المحترم".

٣١- الشهري: ويسمى في بغداد (مثنوي حوزاوي) ومنه موشح "نورنا يجلو ظلام الغيب" واغنية "فوق النخل فوق" ويسمى هذا المقام في سوريا (اصفهان)، ومنه اغنية "يا غزالي كيف عني ابدوك".

فصيلة الحجاز كار:

٣٢- الحجاز كار:

٣٣- الشت عريان:

٣٤- الشهان:

٣٥- النوريز: ومنه "يا ابن الحمولة على اشيدلك".

٣٦- السلمك: ومنه اغنية "يا ويل حالياً حال الدم حالياً".

٣٧- اللامي:

٣٨- الخنابات:

مقامات نغم النوى:

٣٩- النوى (البوسليك):

٤٠- النهاوند:

٤١- الشرقي نوى: ويسمى في بغداد (شرقي دوكاه).

مقامات نغم الجهار كاه

٤٢- الجهار كاه:

٤٣- الجهاركاه خلوتي: وهو عين الجهار كاه المصري.

٤٤- الزنكلاه: ومنه دور "أسير العشق".

مقام العجم عشيران:

٤٥- مقام العجم عشيران: وهو عين المقام المستعمل في الموسيقى المصرية والتركية.

مقامات نغم الرست:

فصيلة الحجاز كاه:

٤٦- مقام الرست:

٤٧- الرست جهاركاه:

٤٨- الرست بنجكاه:

٤٩- الشرقي رست:

٥٠- الراشدي:

٥١- الحليلايوي: ويتألف من البيات والرست.

٥٢- الرست طاهر: ويتألف من البياتي والرست جهاركاه.

٥٣- البشيرى: وهو نوع من الراشدي، ومنه اغنية "للناسرية".

فصيلة البنجكاه:

٥٤- البنجكاه:

٥٥- البنجكاه افشار:

٥٦- البنجكاه بشيري:

فصيلة الرست المصري:

٥٧- الرست المصري: ومنه موشح "يا هلا لا غاب عني".

٥٨- الرست كردانيا (ماهور) ومنه موشح "حبر الأفكار بدري".

٥٩- السازكار: ومنه موشح "يا شادي الألحان".

٦٠- السوزنلاك: ويتألف من الحجاز والرست، ومنه موشح "يا غريب المرشفا".

مقامات نغم السيكاك:

٦١- مقام السيكاك:

٦٢- السيكاك اوج:

٦٣- السيكاك المصري (خزام).

٦٤- السيكاك الحكيمي:

٦٥- السيكاك اليوزيكي: ويسمى في بغداد (سيكاك جمالي).

٦٦- العزال:

٦٧- السفيناتي:

٦٨- السيكاك افشار: وهو سيكاك على الأسلوب الآيراني.

٦٩- السيكاك عراق: وهو سيكاك يستقر على درجة العراق، ومنه موشح "بابي باهي الجمال".

٧٠- البيست نكار: ويتألف من الصبا والسيكاك عراق، ومنه موشح "أنشدي يا صبا".

٧١- السيكاك مخالف: وهو المخالف البغدادي، ومنه اغنية "اشلون حالي واشلون".

مقام الحجاز كاركرد:

٧٢- مقام الحجاز كاركرد: وهو مقام كوردلي حجاز كار التركي، استعمل في الموسيقى العربية، منذ أوائل هذا القرن.

هذه اهم المقامات الموسيقية المستعملة في الموصل، ويتضح ان الكثير منها لا تختلف عما يقابلها من المقامات في الموسيقى العربية الأخرى ومنها ما يتفق من حيث النوع والتغلي ويختلف في أسلوب الغناء، والقليل جداً ما ليس له مقابل في الموسيقى المصرية.

